مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (02) جـوان 2022 ص ص 217-235

الحلقة في نظام العزّابة: المهاد التّاريخي والبنى الرّمزية

The « HALAKA in the “Azzaba” System: The Historical cradle and the Symbolic Structures

إقبال عبيدي اللموشي*

جامعة جندوبة (تونس)

البريد الالكتروني: lamouchi_ikbel@yahoo.fr

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2021/12/03	2022/05/10	2022/06/01

الملخص:

نتناول في هذه الورقة العلميّة المُقترحة: **الحلقة في نظام العزّابة: المهاد التّاريخيّ والبُنى الرّمزيّة**، قراءة في نظام حلقة العزّابة بجزيرة جربة في حدود القرن الخامس هجريّا. وتنطلق هذه القراءة من النّصوص الإباضيّة المؤسَسة للدّرجيني (ت670هـ/1271م) والبرّادي (ت810هـ/1407م)، وصولاً إلى النّصوص الاستشراقيّة اللاَحقة، مُستقرئين ما تستبطنه مُكوّناتها من دلالات وبُنى رمزيّة. وممَالا شكّ فيه أنّ مقاربة النّصوص الإباضيّة المؤسَسة كفيلة بالكشف عن أصالة مفهوم الحلقة، وحيثيّات تكوّنها.

ما نُريد الإبانة عنه في هذا المقال، من خلال دراسة المُمارسات اليوميّة بما تحمله من طُقوسِ اللّباس والأكل وقوانين الانتظام وقواعده، لحلقة العزّابة هو البحث في المهاد الذّي وُلد فيه مفهوم "الحلقة"، وكيفيّة تطوّره، مُحاولين الكشف عن بناه الرَمزية والدَلالات الثَقافيّة التي يُمارسها الوعي واللاّوعي الجمعيّ على حدّ سواء.

الكلمات المفتاحية: *الحلقة؛ نظام؛ العزابة؛ البنى الرمزيّة*

Abstract :

The proposed paper entitled « The HALAKA in the Azzaba System: The Historical cradle and the Symbolic Structures », suggests a reading of the “Halaka in the Azzaba system” from its very foundation in the first centuries till its wane, in the Djerbian context. The article gives a two-fold perspective: a critical analysis of the founding Ibadhi

* **المؤلف المرسل**

texts of Darjini (670 AH / 1271 AD) and Barradey (810 AH / 1407 AD) and a reading of the ulterior orientalist artifacts, trying to explore both their implicit meanings and symbolic structures. No doubt, therefore, that approaching the founding Ibadhi texts suffice to unfold the originality of the concept of Halaka and the circumstances of its formation. The article, thus, endeavours to showcase the cradle in which the notion of "Halaka" was born and how it was developed, via examining the daily practices including the dress code, the food rituals, and the order laws and rules for the Azzeba Halaka system, while seeking to unveil its symbolic structures and the cultural meanings of collective consciousness and unconsciousness likewise.

Keywords: *Halaka ; System; Azzaba ; Historical ; Symbolic.*

مقدمة:

إنّ ما يُميّز الانسان باعتباره كائنا تواصُليّا قُدرته على إنتاج الرّموز. ولئن عُدّ الرّمز بوّابة الانسان نحو الانتماء والاعتراف الجمعيّ على حدّ سواء، فإنّ قراءة الدّلالات الرّمزيّة لأيّ مُنجز فكريّ لا يُمكن أن يتمّ بمعزل عن السّياق الاجتماعي والثّقافي الذي تخلّق من رحمه. على هذا الأساس تروم ورقتنا البحثيّة: «**الحلقة في نظام العزّابة: المهاد التّاريخيّ والبُنى الرّمزيّة**»، استجلاء خصوصيّات وحيثيّات تشكّل نظام مخصوص كان له الدّور الأبرز في الحفاظ على مقوّمات الهويّة الإباضيّة بجزيرة جربة في القرن الخامس الهجريّ، متوسّلين لأجل ذلك قراءة النّصوص الإباضيّة المؤسَسة للدّرجيني أبو العبّاس سعيد الدّرجيني صاحب "طبقات المشايخ بالمغرب"، والبرّادي أبو القاسم بن إبراهيم صاحب "الجواهر المُنتقاة في إتمام ما أخلَّ به كتاب الطّبقات" والنّصوص الاستشراقيّة اللاَحقة، وتفكيك رمزيّاتها. ويكتسب اختيارنا للبِنَة من لبِنات نظام العزّابة، والمتمثّل أساسًا في "الحلقة"، مشروعيته في أنّه يُمثّل أنموذجا لنظام اجتماعي تعليمي، قد أشاد به القاصي والدّاني نظرا لأهمّيته في حفظ كيان الجموع الاباضيّة وتسيير شؤونهم في شتّى مناحي الحياة على إثر نهاية إمامة الظّهور عند إباضيّة شمال إفريقيا والدّخول في طور الكتمان. وتسعى هذه القراءة إلى الكشف عن الرُّؤى الّتي يصدر عنها كلٌ من الدّرجيني والبرّادي، فضلاً عن تتّبع السِّمات المائزة لكلّ من العَلَمين.

وليس خافيًا أنّ البحثَ في نظام حلقة العزّابة بجزيرة جربة، يكادُ يكون بحثًا في خصوصيَات المجتمع الجربي ومقوّماته الثَقافيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة في آنٍ. فضلاً عن أنّ استقراء مُكوّنات هذا النّظام وقوانينه وأعرافه ودلالاته الرّمزيّة، سيُتيح لنا فهم ما أسماه إيرفينغ قوفمان Erving Goffman طُقوس التّفاعل في الحياة اليوميّة les rites d'interaction (Goffman,1974, p240).

لا شكّ في أنّ دراسة نظام حلقة العزّابة يُعدّ بحثا في الفضاء الذي تتجلّى فيه تفاعلات الحياة اليوميّة وطقوسها، كاشفة عن دلالات رمزيّة ترتبط أساسا بالسّياق الاجتماعيّ من ناحية، وبالمنظومة القيميّة والاخلاقيّة والدّينيّة الثَقافيّة التي يُمارسها الوعي واللاّوعي الجمعيّ على حدّ سواء من ناحية أخرى.

فكيف بدا نظام العزَابة من خلال النّصوص المؤسّسة؟ ثمّ كيف تبدّى في النّصوص الاستشراقيّة اللاَحقة؟ وما هي الدّلالات والمعاني الحضاريّة والثّقافيّة الثَاوية طيّ البنى الرّمزيّة لمُكوّنات نظام الحلقة؟

1. حلقة العزّابة في النّصوص الإباضيّة المؤسَسة: البنية والمفهوم.

1.1 حلقة العزّابة من خلال طبقات الدّرجيني:

يذكر الشّيخ أبو العبّاس أحمد بن سعيد الدّرجيني في الجزء الأوّل من طبقاته ألفاظا "ممّا اصطلح عليه أهل الطّريق، وتعارفوه بينهم"، فيُورد المعنى اللّفظيّ والاصطلاحيّ للعزّابة (الدرجيني، 2016، ص43). ولئِن انطلق الدّرجيني من بيان مفهوم ومعنى "العزّابيّ" عن طريق عرض أحواله وصفاته، فإنّنا نجده يفصل بينه وبين مفهوم "الحلقة".

تبدو عناية الدرجيني بلفظ "العزابة" موغلة في التفصيل مقارنة بما ألفيناه عنده في باقي الألفاظ ، لذلك لا غرابة إن وجدناه يرسم الحدود الّتي يُمكن بمُقتضاها إطلاق اللّفظ، وذلك عن طريق تعريف مُكوّناته وخصائصه في قوله "**هذه اللّفظة استعملتها لقبا لكلّ من لازم الطّريق وطلب العلم وسير أهل الخير، وحافظ عليها وعمل بها**" وقوله" **واعلم أنّ**

لهذا الصّنف سيما انفردوا بها، وأحوالا عرفوا بها، لا ينفصل عليهم فيها سواهم، وذلك في تسميتهم، وخطابهم، ومؤاكلتهم، ولباسهم، وأوقات نومهم وقيامهم، وأورادهم وصيامهم، وعبادتهم، وعندهم في ذلك قوانين يعتادونها وحدودا لا يتعدّونها"(الدرجيني، 2016، ص43). وقد اضطرّه هذا التّقعيد والتّأسيس للمفهوم إلى وضع الشّروط الجامعة والمانعة للّفظ إذ يقول "فإن حصل جميع هذه الصفات سمّي عزّابيا، وإن حافظ على السّير والعمل بها فقط سمَي به، وإن حصل العلم دون السّير والعمل بها والمحافظة عليها لم يسم بهذا الاسم" (الدرجيني، 2016، ص43)، لذلك تواترت الجُمل الشّرطيّة لرسم ما به يكون العزّابيّ عزّابيّا.

وأهمّ ما يُمكن ملاحظته في التّعريف اللّغويّ للفظ "العزّابي"، هو انطلاق الدّرجيني من البنية الصّرفيّة للّفظ مُرجعًا إيّاه إلى المُفرد "عزّابي"، "**فمن ذلك العزابة وأحدهم عزابي**"، مرورًا بالاشتقاق اللّغويّ "**وهذا الاسم مُشتقّ من العزُوب عن الشّيء، وهو البُعد عنه، فاستعير لمَن بعد عن الأمور الدُّنيويّة الشّاغلة عن الآخرة**"

واللّافتُ للانتباه أنّ الدّرجيني يستند إلى الموروث المُعجميّ العربيّ للفظ "العزُوب"، وهو نفس المعنى الّذي أورده ابن منظور في اللّسان (ابن منظور، ص183). لكنّ الدّرجيني يتجاوزه ليخرج اللّفظ عمّا تعارف القوم عليه بقوله: "فاستُعير لمن بعُد عن الأمور الدُّنيويّة الشّاغلة عن الآخرة"، ليغدو مُصطلحًا خاصًّا بالإباضيّة، وهو فضلاً عن ذلك يفصّل التّعريف الإجرائيّ، إذ يُزوّدنا بالمعايير اللّازمة لرسم مفهوم العزّابي.

بذلك يمكن أن نعتبر أنّ الدّرجيني قد كان له السّبق في تعريف لفظ «العزّابة»، ممّا مكّنه من التّأسيس لقِيَم مُصطلحيّة جديدة، تنقلنا من المعنى الاصطلاحيّ إلى المعنى التّداوليّ.

أمّا في خصوص مفهوم "الحلقة"، فإنّ الدّرجينيّ اكتفى بالتّأكيد على تحلّق الجماعة حول الشّيخ لتعلّم العلم وتلقين السِّيَر والتبصّر في الدّين[...] فكأنّهم محلّقون ولو أنّهم مفترقون» (الدّرجيني، 2016، ص43)

ولنا أن نقرَ أنَ الدَرجيني رغم الجهد التَأسيسي الذي برهن عليه في تعريف نظام العزَابة فإنَه لم يصدر عنه نفس الجهد في التعريف بنظام الحلقة. وهو ما استدركه البرَادي في جواهره، فخصّص له فصلا أبان فيه عن تفاصيل انتضامهم داخل الحلقة وقواعدها.

2.1 حلقة العزّابة من خلال جواهر البرّادي:

لئِن كان لصاحب الطّبقات السّبق في تعريف لفظ العزّابة، فإنّ صاحب الجواهر المُنتقاة، قد تنبّه في الفصل الموسوم بـــــ "ذِكر من سيرة الحلقة ما ينبغي لأهل الطّريق والعزّابة أن يأتوا به ممّا رتّبه أبو عبد الله محمّد بن بكر رضي الله عنه"، لأهمية مفهوم "الحلقة"، جامعا بينه وبين مفهوم العزّابة. فقد اقتصر الدَرجيني على اعتبار الحلقة، «اسم لجماعة تشمل على الشّيخ يعلّمهم العلم[...] فكأنّهم محلّقون ولو أنّهم مفترقون» في حين كانت اللُّمَع الّتي ذكرها البرّادي، مُغرقة في تفاصيل هيئة العزّابي الخارجيّة، وخِصاله المعنويّة، وأدّق تفاصيل انتظام الجماعة.

ويُمكن القول إنّ تأخّر البرّادي في الزّمن قد أتاح له الاستفادة ممّا أسّس له الدّرجيني، فضلاً عن أنّ المفاهيم في عصره قد تشكّلت، فاستفاد من نصَي الدّرجيني في خصوص العزابة والحلقة، وجمع بينهما مستثمرا مفهوم "شيخ الحلقة أو العالم"، الذّي أورده الدّرجيني في فصل الحلقة.

وقد فصّل البرّادي مهامّ شيخ الحلقة، ويُمكن إجمالها كالتّالي:

- "الجلوس لطلبة العلم في وقتٍ معيّنٍ.
- الجلوس إثر الحلقة للجواب عن الأسئلة، في أي فنٍّ كان، وتختصّ غداة الجمعة بذِكر شيءٍ من الوعظ والإرشاد.

- الاستفتاح، وهو قيامه ثُلث اللّيل الآخر، أو في رُبعه الآخر.
- جمع الطّلبة يوم الجمعة والاثنين والخميس.
- تقليد العُرفاء، ممّن حمدت أفعاله فاستحسنت، ومن عليه شيء من أحواله، فإن كان كبيرًا فإلى الخطّة، وإن كان صغيرًا فيُؤدّب.
- النّظر في قَبول التلاميذ الجُدد.
- الحكم بين المختلفين والمنصف بين المتباغضين فيأخذ من الظالم والمظلوم".

كما فصّل أصناف العُرفاء وهيآتهم ومهامّهم (البرّادي، 2014، 226-235).

وما يُمكن أن نستنتجه من هذا العرض المُوجز أمران، أحدهما: مركزيّة دور الشّيخ التّعليميّ والاجتماعي في نظام الحلقة، وهو أمر قد أشار إليه الدّرجيني، ولكن البرّادي فصّله لدرجة أنّه أصبح قُطب الرّحى الذّي يدور حوله نظام الحلقة، فضلاً عن أنّ الدّور التّعليمي للشّيخ يدفعهُ للاهتمام بالتّفاصيل الاجتماعيّة والاقتصاديّة (عريف الطّعام).

أمّا الأمر الثاني: فإنّ نظام عرفاء القرآن، يعكس مركزيّة مفهوميْ العلم والعمل وتلازمهما، فضلاً عن قُدرة نظام الحلقة في صهر مَن تعذَر عليه امتلاك قدرات علميّة، ليُقدره على فعل الخيرات عبر خدمة ونفع الغير.

وأهمّ ما يُمكن أن نستنتجهُ من خلال ما سبق أنّ العزّابة يجمع بين أمور الدّين والدُّنيا، وهو ما يُحيلنا على مفهوم "الإمامة" لدى الإباضيّة، فضلاً عن أنّ هذا التّنظيم يتطلّب شروطًا ومقاييس صارمة لا يُمكن تجاوزها.

وفي خصوص التّراتبيّة في نظام العزّابة، يحتلّ الشّيخ هرم هذا البناء من خلال جملة من المؤشّرات، كالصّفات المطلوبة فيه، والعلل المُوجبة لتنحيّته، والمهامّ الموكلة إليه.

لا يخفانا بعد النَظر في النَصوص المؤسَسة، ملاحظة أنَ مركزيَة العلم تكاد تكون السَمة الجامعة في نظرة كلَ من الدَرجيني والبرَادي لمعنى الحلقة. ويمكن إرجاع هذا المؤتلف بين هذه النّصوص إلى اعتبار حلقات العلم عند الإباضيّة، قد بدأت منذ عهد

الإمام أبي عُبيدة مُسلم بن أبي كريمة التّميمي في القرن 2هـ/8م، وربّما قبل ذلك في عهد الإمام جابر بن زيد الأزدي في القرن 1هـ/7م. وظلّت حِلق العلم مستمرّة ومتعدّدة، إذ نجد ابن الصّغير، وهو من غير الإباضيّة في تيهرت، يتحدّث عن حِلق الإباضيّة، فيقول: "مَن أتى إلى حِلق الإباضيّة من غيرهم قرّبوه وناظروه ألطف مناظرة" (مجموعة من المؤلّفين، 2011، ص698)

لقد كان طلب العلم سِمَة من سِمات الإباضيّة في القرون الأولى للهجرة، كغيرها من المذاهب الإسلاميّة الأخرى، ولئن كانت حلقات العلم في زمن أبي عُبيدة مسلم بن أبي كريمة سرّية تخفّيًا من الاضطهاد والمُلاحقة، فإنّ مرحلة العلم بتيهرت الرُّستميّة أصبحت مفتوحة لغير الإباضيّة، لأنّهم في مرحلة الظّهور. ولمّا سقطت هذه الدّولة عاد الإباضيّة إلى مرحلة الكِتمان، وظلّوا يجلسون للعلم في مناطقهم بنفوسة أو جربة أو درجين أو الجريد أو وادي سُوف أو أريغ أو وارجلان، يعقدون حلقات العلم حفاظًا على نشر العلم والدّعوة وبقاء مذهبهم. واستمرّت حِلق العلم طيلة القرن 4هـ/10م، تُعقد من غير أن يكون لها نظام (مجموعة من المؤلّفين، 2011، ص698). وكان أوّل من فكّر في تأسيس الحلقة ودعا إليها، أبو زكريّاء فصيل بن أبي مسور اليهراسني، فقد كلّم التّلاميذ «الشّيخ أبا عبد الله محمّد بن بكر النّفوسي أن يعقد لهم حلقة (مجموعة من المؤلّفين، 2011، ص ص 698-699) وقد أسّسها بمسجد المنية سنة 408هـ: 1017-1018م. وهكذا عندما برز النّظام سمّوه بالسّيرة المسوريّة البكريّة، نسبة إلى أبي زكريّاء فصيل بن أبي مسور، وله فضل التّحريض، وإلى أبي عبد الله وله فضل استفراغ جهده في وضع قوانينها (الجعبيري، 2016، ص41).

2. مفهوم الحلقة من خلال دراسات المستشرقين اللاَحقين:

لا أحد يُنكر أهمّية الدّراسات الاستشراقيّة المهتمّة بتاريخ الشّمال الإفريقيّ عامّة، والإباضيّة خاصّة، وهي دراسات جادّة تقوم على المنهج المُقارن ودراسة المصادر، فضلاً

عن الرّحلات الميدانيّة، لتقصّي أحوال المُجتمعات، موضوع الدّراسة، بالإضافة إلى البحث عمّا ندر من المخطوطات والوثائق ذات الصّلة. ومن بين هؤلاء المستشرقين، اخترنا دراسة المستشرق الإيطالي "روبارتو روبينا تشي" Roberto Rubinacci، فضلاً عن "ليدن بريل" Leiden E.J. Brill، صاحب مقال "الإباضيّة" في الموسوعة الإسلاميّة باللّغة الأنجليزيّة: "Ibaduya in the Encyclopedia of Islam"، و"لويكي " lewicki صاحب مقال "HAIAKA" في Encyclopedie de l'Islam.

2.1 مفهوم الحلقة من خلال دراسات المستشرق روبارتو روبيناتشي Roberto Rubinacci:

تعتبر دراسة المستشرق الإيطالي "روبارتو روبيناتشي"، أستاذ العربيّة بجامعة نابولي، إيطاليا، والمتخصّص في المذهب الإباضيّ وتاريخه، والموسومة بـــــ "العزابة"، حلقة الشيخ محمّد بن بكر (وثيقة قديمة في حياة نُسّاك الصّوامع في الإسلام)، Un Antico document ti divita Cenobitica Musulmans, Laregola della Halaqa dello svayh Abu'AbdAllah Muhamed b.Bakr من بين أهم الدراسات الاستشراقيّة.

لا يُستبعد "روبارتو روبيناتشي"، العلاقة بيت حلقات التصوّف الإسلاميّ والمسيحيّة (روبارتو روبيناتشي، 2006، ص16). بل إنّه يُعتبر أنّ حياة الزّهد الّي عرفها إباضيّة الحلقة آنذاك، تُعتبر شاهدا على ذلك، فحلقة أبي بكر بالنّسبة إليه هي أقدم سيرة عن الرّهبة في الإسلام، عرفت إلى يومنا هذا (روبارتو روبيناتشي، 2006، ص15).

ويرجّح أن تكون هذه الوثيقة من الإرهاصات الدّالة على التّنظيم الصّوفي، الّذي تبلور منذ بداية النصف الثّاني عشر، مع ظهور الطّرق الصّوفيّة" (روبارتو روبيناتشي، 2006، ص15)، مؤكّدًا على أنّ السّيَر قد وثقت بشكل أصيل حياة الزُّهاد المسلمين في القرن الثّاني عشر"(روبارتو روبيناتشي، 2006، ص16).

لذلك نجده يعقد مقارنة بين "العزّابي" و"الرّاهب" في قوله: " **والرّداء سواء بالنّسبة للعزّابي أو للرّاهب المسيحيّ، يتكوّن من قميص عباءة، ويجب أن يحلق شعر رأسه كلّية، ويُمكن أن تكون الحياة السّابقة المليئة بالخطايا سببًا في عدم القبول سواء بالحلقة، أو سواء بالدّير المسيحيّ، ولكونه مطالب بالطّهارة التّامة، يجب على العزّابي مثله مثل الرّاهب المسيحيّ، تحاشي أيّ علاقةٍ ما بالنِّساء**". وتدفعنا هذه المُقارنة إلى إبداء ملاحظتيْن، تتعلّق الأولى بتفسير التّشابه بين المظهر الخارجيّ، بين الرّاهب والعزّابي باعتبار أنّ دخول كلّ منهما تجربة روحيّة جديدة، يدفع كلّ واحدٍ للالتزام بطُقوس التّطهير، بكلّ ما تحمله من دلالات التّغيير والانتماء للحياة الجديدة. وإن كنّا نختلف معه في اعتبارهم متصوّفة لاعتبارات كثيرة سنوردها لاحقا، فإنَ ما تحدّث عنه من طقوس التَطهير، كفيل بكشف الوشائج التي يرشح بها الفكر الديني عموما والهويَاتي خصوصا. وقد تكون إشارته مدخلا مثيرا لدراسة الفكر الهويَاتي واستجلاء مميزاته عبر استقراء طقوسه.

في حين تتعلّق الملاحظة الثّانية بمناقشة مفهوم العزابي كخطوة لقراءة خصائص الحلقة وخصائص مرتاديها. ولقد اعتمد "روبارتو روبيناتشي" في ذلك على دلالة كلمة "عُزَّاب"، الّتي تُطلق على غير المتزوّجين، من خلال التّأويل المجازي لمعنى عازبٍ (روبارتو روبيناتشي، 2006، ص24) وهو تأويلٌ مُجانب للصّواب، باعتبار أنّ العزّابي لا يُشترط فيه عدم الزّواج، وقد تفطّن "لفيتسيكي" إلى هذه الحقيقة في مقاله بدائرة المعارف الإسلاميّة، خصوصًا وأنّ مُؤسّس الحلقة قد تزوّج كما أسلفنا، ناهيك عن أنّ الإباضيّة تؤكّد أنّ معنى العزوب يرتبط أساسا بالابتعاد عن شواغل الدُّنيا، بعيدًا عن مظاهر الرّهبنة، عملاً بقول النّبي صلى الله عليه وسلّم: "لا رهبانيّة في الإسلام". وقد بيّن فرحات الجعبيري معنى " العزوب " رفعا لأيّ التباس قد يجمع بين انقطاع العزّابي عن شواغل الدّنيا واعتزال الصّوفية والطروقيّين بقوله: " **أن لا يجعل للدّنيا قيمة كبرى، أقبلت أو أدبرت على أن لا ينسى نصيبه منها ، وهو أيضا من أجل التّفاني في خدمة المسلمين وحفظ دينهم . ناهيك**

أنّ العزابي واجب عليه أن يتزوّج وقد تزوّج مؤسّس العزّابة، إذ يسعى لطلب قوته ويكون دائما في خدمة المجتمع" (الجعبيري، 1975، ص63).

ونجد لدى المُستشرق "بيير كوبرلي" Pierre Coperly في دراسته الموسومة بـــ "مدخل إلى دراسة الإباضيّة وعقيدتها" بحث مقارن في اللاّهوت الإباضيّ في بلاد المغرب وعمان، تفنيدٌ ضِمنيٌّ لرأي "روبارتو روبيناتشي" عبر التّأكيد على جمع سلطة العزّابة بين السّلطة الدّينيّة والسّلطة الموازية لممثّلي الشّعب (العوام) المنضمّين في الجماعة"(بييركوبرلي، 2011، ص5)، وبذلك تكون مهمّة الحلقة تنظيم حياة المجتمع الإباضيّ عبر تنظيم حلقات العلم والتفقّه في الدّين، بغيَة تنظيم حياة النّاس الاجتماعيّة والسّياسيّة في مرحلة الكِتمان. وهو نفس الموقف الذي أشار إليه ليفيتسكي عندما اعتبر أن الحلقة هي التي كانت تهتم بمجالس الجماعة قبل الاحتلال الفرنسي بوادي مزاب.

وفي الوقت الذي ذهب فيه "ليفتسكي" إلى أنّ الحلقة ليست حِكرًا على الإباضيّة الوهبيّة، بل وجدت من قبل النّكار (Lewicki, 1991, p 98)، يربطُ "روبيناتشي" بين أوّل حلقة بالبصرة، والّتي أسّسها الرّاوي الإباضي الشّهير تلميذ جابر بن زيد أبو عبيدة التّميمي، الّذي توفّي حوالي منتصف القرن الثّامن للهجرة، حيث يرجّح أنّ هذه الحلقة كانت النّموذج الأوّل الّذي نقله إباضيّو المغرب إلى الشّمال الإفريقيّ (روبيناتشي، 2006، ص27).

ومهما يكُن من أمرٍ، فإنّ بحث المستشرقين في تاريخ ظهور حلقة العزّابة، والوشائج الّتي تجمعها بباقي الحلقات، يؤكّد على العلاقة بين المشرق والمغرب من ناحية، ويُوصلنا إلى إدراك البُعد التعبّدي والتّعليميّ للحلقة من ناحية أخرى، وهو ما سنهتم به في رمزيّات العلم والعمل عند الإباضيّة في العنصر الأخير من هذا المقال.

2.2 مفهوم الحلقة من خلال دراسات المستشرق تادايوش ليفيتسكي Tadeusz Lewicki:

يُطالعنا "ليفيتسكي" في مقاله الموسوم بـ HALAKA (Lewiki, 1991, p48) بتعريف الحلقة، باعتبارها "مجلسًا دينيًّا، يتحلّق أعضاؤها في شكل دائريّ، يترأسّهم شيخٌ، وهم يجلسون جنبًا إلى جنبٍ دون أن يتركوا مسافةً بينهم، حذر وُلوج الشّيطان إلى حلقتهم". والواقع أنّنا لا نشاطر ليفيتسكي الرّأي في خصوص الغاية من تراصّ الحلقة، رغم وجاهة التّعريف، فيبدو هذا الحرص على التّقارب بين المتعلّمين شبيها بالمقصد من تسوية الصّفوف في صلاة الجماعة بحيث لا يتقدّم بعض المصلّين على البعض الآخر، ويعتدل القائمون في الصف على سمت واحد، حرصا على النّظام وتجنّب الفوضى والاختلاف. وعادّة ما يتجمّع النّاس في الحلقة بوادي أريغ وورغلة وجبل نفوسة وجربة وعمان وزنجيبار...، حول شيخ أو عالم يترأّس الحلقة حتّى وفاته. وتُعهد إليه مسؤوليّات قانونيّة فقهيّة، وفضلا عن كونه متكلّما، كان يقوم بمهام القاضي ويحلّ النزاعات بين المتخاصمين. وقد تنبَه لوينسكي إلى النَظام الأخلاقي والقيمي الصَارم الذي كان يحكمهم ويرى أنَهم يتبعون في ذلك القواعد التي أرساها أبو عبد الله، مؤسس نظام العزَابة.

ولئن حاول روبيناتشي عقد مقارنة بين حلقة العزَابة والمتصوَفة وإقامة الدَليل على العلاقة بين حلق المتصوّفة وحلقة العزَابة، فإنَ لوينسكي قد اهتمَ بكلَ تفاصيل نظام الحلقة، مستندا في ذلك إلى النَصوص المؤسَسة، طبقات الدَرجيني وجواهر البرَادي. والطّريف فيما قدَمه هو أنَه قد تنبَه إلى الأبعاد الرَمزية للحلقة كرمزيّة التَحلَق والتَراص والبياض فضلا عن بُعدها القيمي، ممّا يجعل من مقاله حول الحلقة من أهمّ المراجع التي يمكن للباحث التّعويل عليها.

3. نظام الحلقة: الرّمزيّة والدّلالات:

لئِن مثَلت الرّموز جوهر المقدّس وطاقته الرَوحيّة، فإنّ الوُلوج إلى تجربة المقدّس ومعايشته، ومن ثَمَّ فهمه وإدراكه، مُرتهن بتحليل ما يستبطنه من دلالات رمزيَة.

لقد وضح لدينا من خلال النّصوص التّأسيسيّة الإباضيّة، لنظام الحلقة لدى الدّرجيني والبرّادي، أنّ الشّيخ أبا بكر، مؤسّس نظام "الحلقة"، قد رتّب قوانينها وأرسى قواعدها، بحيث أصبح وُلوج الحلقة حدثًا لا يُمكن أن يتيسّر إلاّ لمَن ناله شرف الانتماء إلى هذا النّظام، وتوفّرت فيه شروط لا تتأتّى لغيره من العامّة. فضلاً عن أنّ هذا الانتماء والدّخول كان مشفوعًا بطُقوس مُثقَلةٌ بالرّموز والدّلالات. وليس خافيًا لدينا أنّ المُقدّس الدّينيّ، مُمثّلاً في الدّين الإسلاميّ، كان له الأثر البليغ في تشكّل هذا الإرث الرّمزيّ. على هذا الأساس تبدو قراءة البنية الرّمزيّة الثاوية في مقام العزّابة أمرًا مُلحًّا لفهم دلالات هذا النّظام، المُترسّخة في ثقافة المجتمع الإباضي الجِربيّ. ففِيمَ يتجلّى هذا الإرث، وما هي دلالالته؟

1.3 رمزيّة الحلقة:

تُعتبر "الحلقة" أيقونة من أيقونات نِظام العزّابة، وتكمن أهمّيتها في كونها حلقة علمٍ بالدّرجة الأولى، فضلاً عن دلالتها الرّمزيّة، لقد تنبّه المُستشرق "لوينسكي" إلى أبعاد التحلّق، حيث اعتبر الحلقة مجلسًا دينيًّا، يتحلّق أعضاؤها في شكلٍ دائريٍّ حول شيخ يترأّسهم، حيث تتراصّ صفوفهم دون أن يتركوا مسافة، حذر وُلوج الشّيطان بينهم. بهذا المعنى، يرمز التحلّق في شكلٍ دائريٍّ إلى تراصّ الصّفوف والالتحام، فضلاً عن الوِحدة والانسجام ونبذ الفُرقَة والانقسام (Lewiki, 1991,p98).

كما ترمز الدّائرة إلى التحام البداية بالنّهاية، إلى البُعد الإلهيّ والكائن الواحد الأحد (Chevalier et Alain, p191). تأسيسا على ماسبق، تصبح الحلقة رمزا من رموز الهويّة الاباضيّة وعنوانا لوحدة الجماعة وتماسكها.

2.3 رمزيّة الملَبَس:

فصّل البرّادي في جواهرِهِ شروط المظهر الخارجيّ للعزّابي، فجعل للملبَسِ نصيبًا لا بأس به من هذه الشُّروط، حيث يقول: "ومن شِعارهم عدم الشُّعور، ومنها أَلاَّ يلبس ثوبًا مصبوغًا إلاّ بالبياضِ ولا بأس لعلم الطرفين والطّراز، ما لم يتفاحشا، ثمّ اقتصر على عباءة أو ملحفة لم تشنه وكان أليَق[...]" (البرّادي، 2014، ص207)

يبدو هذا الإغراق في تفصيل مظهر العزّابيَ، وبيان شُروطِ هِندامه، أمرًا على غاية الأهمّية، ولعلّ استجلاء أبعاده الرّمزيّة كفيلٌ بفهم هذا الحرص الّذي أبداه صاحب الجواهر، وسبقه إليه صاحب الطّبقات.

إنّ اشتراط اللّون الأبيض وبساطة الزيّ، يذكّرنا بلِباس الإحرام، حيث يخلع المُحرِم المَخيط ويلبس قطَع قماشٍ بيضاء، فضلاً عن حلق الرّأس (وهو ما سنتبيّن دلالاته لاحقًا)، وممّا لا شكّ فيه أنّ معنى الإحرام بالنّسبة للحاج والمُعتَمر لا يقتصر على الجانب المادّي فحسب، بل إنّ المُراد في الأصل أن يمتنع المُحرم عن كلّ ما يُبطل الحجّ من إيذاء الآخر، والاستمرار في العبادة، والتّركيز الرّوحيّ، بُغيَة هجر الذُّنوب ومشاغل الدُّنيا، فيعود كما ولدتهُ أمّه طاهِرًا نقِيًّا، نقاء ثوبهِ.

3.3 رمزيّة اللّون الأبيض:

من بين شروط المظهر الخارجيّ للعزّابيَ، أَلاَّ يلبس ثوبًا مصبوغًا إلاّ البياض" (البرّادي، 2014، ص207). ويعدّ اللّون الأبيض حسب بعض الدراسات تركيبية ثقافية مُعقّدة، تتأتّى على كلّ تعميم أو تحليل، وتطرح العديد من القضايا الصّعبة" (Pastoureau, 2000, p5). فضلاً عن أنّ رمزيّة الألوان تُعدُّ من بين المباحث الّتي يُمكن للباحث أن يتوسّل بها لمُقاربة الخصوصيّات الثّقافيّة لمجتمعٍ ما، إذ أنّ "المُجتمع هو مَن يصنع اللّون ويمنحه تعريفًا ومعنًى، ويضع قوانينه وقيَمه، وينظّم استعمالاته.

وإشكالات اللّون هي أوّلاً ودائمًا إشكالات اجتماعيّة، لأنّ الإنسان لا يحيا وحيدًا، بل يحيا في إطار المُجتمع (Pastoureau, 2000, p5).

لا مراء في أنّ الألوان وألفاظها اكتسبت إلى جانب دلالالتها الحقيقيّة دلالات اجتماعيّة ونفسيّة جديدة، نتيجة ترسّبات طويلة، أو ارتباطات بظواهر كونيّة، أو أحداث مادّية، أو نتيجة لِما يملكه الكون ذاته من قُدرات تأثيريّة، وما يحمله من إيحاءاتٍ مُعيّنة، تؤثّر على انفعالات الإنسان وعواطفه (مختار،1997، ص199).

يُعتبر اللّون الأبيض، منذ العصور القديمة، لونًا مَقدّسًا (Fréderic, 1857, p4-32). وهو أفضل لون عند العرب، فقد قيل: "البياض أفضل والسّواد أهول"، وعبّروا عن الفضل والكرم بالبياض، حتّى قيلَ لمَن لم يتدنّس بمعابٍ: هو أبيض اللّون (الإصفهاني، 1992، ص15). باعتباره رمزا للطّهارة والنّقاء. ويعمل اللّون الأبيض في قلوب النّاس عمل السّكينة والصّمت، وهو ليس صوت موت، وإنّما صمتًا ضاجًّا بإمكانيّات عديدة، إنّه الفراغ الباعث على البهجة واليفاعة، وهو الفراغ الحامل لمعاني الولادة.

ففي البدء، وفي العصور الجليديّة، كانت الأرض باردة مُكلّلة ببياض الثّلج البارد، وهو لونٌ يذكّرنا بالولادة والبعث الجديد (Chevalier et Alain, 1982, p 12)

يُستنتج ممّا سبق أنّ اللّون الأبيض هو رمزُ ولادة جديدة، كما المُحرِمُ في الحجّ والعُمرة، يتوشّح بالبياض ويُعلن عبر إحرامهِ وطقوسه (البياض والحلق) عن ولادة جديدة بلا ذُنوبٍ، وكذلك العزّابي بوُلوجه "الحلقة" وانضباطهِ بقوانينها من هجر مُتَع الدُّنيا وشواغلها وذُنوبها... هو بعث جديد، يتّخذ من النّقاء والصِّدق والبساطةِ والتّواضعِ لِباسًا، يكون عنوان التّقوى والحِكمة. فلا غرابة أن يربطَ "جان شوفاليي" بين "البياض وضمير الإنسان الذّي يستبطنُ النّور الدّاخليّ، نُور الحكمة" (Chevalier et Alain, 1982, p) 127

لا مناصَ من أنّ هذا النِّظام الرّمزيّ قد تظافرت في صياغته فضلاً عن الإرث العُرفيّ والشّعبيّ البُعد العقَدي، إذ يرتبط بياض الوجهِ في القرآن بفعل الخيرات ونعيم

الجنّة، في حين قُرن السّواد بالكفر بعد الإيمان والعذاب في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران، 107).

وقد كنَّى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عن سُنّته ودينه القويم بالمحجّة البيضاء، حيث قال: "قد تركتكم على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاّ هالكٌ" (الألباني، 1995، حديث رقم 937).

فكأنَّ النّبي صلى الله عليه وسلّم يرسم في ذهن أتباعه صورة الدّين النَاصعة في صفاء عقائده، وما يرمزُ إليه البياض من استقامةٍ وحُسن سلوكٍ، وينبَه إلى أنَ أيّ زَيغٍ أو انحرافٍ مُؤذن بالهلاك. بهذا المعنى يُصبح البياض رمزًا للصّلاح الدّينيّ والدُّنيويّ على حدّ سواء.

4.3 رمزيّة التّخلّي عن حلق الرّأس:

يتصدّر شرط التّخلّي عن حلق الرّأس قائمة شروط المظهر الخارجيّ للعزّابي، إذ يقول البرّادي: "**أوّل ما يتخلّى عنه، حلق الشّعر، ولا يتركه يطُول**" (البرّادي، 2014، ص207).

أهمّ ما يُمكن أن نستشفّه هو أنّ دخول الحلقة مشفوعٌ بطقُوس التّطهير(Frazer, 1981, p129) وعلاوة على كون شعر الرّأس واللّحية يمثّلان رمزا للرّجولة (Malk, 2002, p67)، يرتبطُ عدم الحلق والتّقصير في القرآن الكريم بالإحرام في الحجّ كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ (البقرة: 196).

نتبيّن من خلال هذه الآية، أنّ حلق شعر الرّأس يُعدّ من محظورات الإحرام، حيث يُعلن عبره المُحرِم التهيؤ للدّخول والعبور إلى عالم التّوبة والغُفران وهجر المعاصي والذُّنوب، وتسليم النّفس والجسد لتجربةٍ روحيّةٍ تُبعده عن الانشغال بأمور الدُّنيا.

وتُحيلنا رمزيّة التّخلّي عن الحلق ودلالته على ما أسماهُ "أرنولد فان قيناب Arnold Van Gennep بطُقوس "التحوّل: أو "العُبُور" Les rites des passage أو ما سمّاه "بيار بورديو Bourdieu Pierre" طُقوس إضفاء الشّرعيّة" (Bourdieu, 1997, p121) حيث يقطع الإنسان مع وضعهِ السّابق، محاولاً الاندماج في هويّةٍ جديدةٍ.

والجدير بالمُلاحظة أنّ "روبيناتشي" قد تنبّه إلى أهمّية هذا الطَّقس ورمزيّته في تهيئة العزّابي "لترك الطّريقة الّتي يعيش بها النّاس في هذا العالم" (روبيناتشي، ص25). حيث يكتسب شرعيّة الانتماء للعالم الجديد عبر الانخراط في "حفلة التّقصير" (روبيناتشي، ص25).

بهذا المعنى ينهض ما أسماه "بيارو بورديو" بطقس التّكريس Rites de consécration (Bourdieu,1997, p121) على التّأسيس للاعتراف الرّمزيّ بشرعيّة المقام الجديد للعزّابي.

لقد ثبتَ لدينا من خلال ما تقدّم، بما لا يدع مجالاً للشكّ، أنّ نظام "الحلقة" يُكرّس ما رسخ في الوعي الجمعيّ المسلم من دلالات طقوس التّطهير، باعتباره فرصة لبعثٍ جديدٍ، أساسه خلع ما تلبّس بالمُؤمن من انشغالٍ بالحياة الزّائفة، وتكريس للحياة الرُّوحيّة، وهي حياة لا تقطع مع الواقع بقدر ما تسعى لغرس البُعدين الرّوحي والعمليّ، لدى العزّابي، حيث يتواشجُ تلقّي العلم بضرورة العمل.

فما هي أبعاد هذا التّكامل، وما هي دلالاته الرّمزيّة؟

5.3 تواشج العلم والعمل عند الإباضيّة: الرّمزيّة والدّلالة:

لا أحد يمكنه أن ينكر أنّ طلب العلمِ يمثّل سِمَة من سِمات الإباضيّة في القرون الأولى للهجرة كغيرهم من المذاهب الإسلاميّة، وحتّى سُقوط الدّولة الرُّستميّة، ولئن كانت حلقات العلم مفتوحة حتّى لغير الإباضيّة، فإنّ الإباضيّة ظلّوا يجلسون للعلم في مناطقهم بنفُوسَة، أو جربة، أو برجين، أو الجريد، ووادي سوف، أو أريغ، ووارجلان، يعقدون حلقات العلم، حفاظًا على نشر العلم والدّعوة وبقاء مذهبهم، واستمرّت حلق العلم طيلة

القرن 4هـ/10م، تُعقد من غير أن يكون لها نظامٌ، إلى أن فكّر أبو زكرياء فيصل بن أبي مسور في تأسيسها، وأرسى قواعدها أبا بكر الفرسطائي النّفوسي (مجموعة من المؤلفين، 2000، ص698).

وبدأت الحلقة تربويّة علميّة محضة، إلى أن تطوّرت لتُصبحَ بمثابة نظام اجتماعيّ سياسيّ للجماعات الإباضيّة في مناطقها ببلاد المغرب الأدنى والأوسط (مجموعة من المؤلفين، 2000، ص699).

ويرى بعض عُلماء الإباضيّة أنّ قواعد الإسلام الأربعة تتمثّل أساسًا في العلم والعمل والنيّة والورَع، لأنّه بالعلم يتأتّى الفِعل على الوجه المشروع (مجموعة من المؤلفين، 2000، ص731). فالعلم يُؤدّي إلى معرفة حدّ المأمور بامتثاله، والعمل هو الذّي يستحقّ به العبد رضا خالقه، بفضلٍ منه(مجموعة من المؤلفين، 2000، ص871).

إنّ مركزيّة العلم والعمل في نظام العزّابة أمر على غاية الأهمّية، إذ تتوقّف تسميَة العزّابي على الحِفاظ على سِيَر أهل الخيرِ، وهو ما يرمزُ إلى أهمّية توراث العلم والاقتداء بسِيَر السّلف، والعمل الذّي يحقّق النّهوض الحضاريّ للأمّة.

4. خاتمة:

هكذا يبدو لنا من خلال ما سبق أنّ نظام "الحلقة" برمزيّاته يقدّم للسّوسيولوجيّين مادّة حُبلَى بالدّلالات والرّمزيّات، حيث تمثّل مدخلاً من مداخل التّعبير عن الهويّة والاعتزاز بها، دون أن يعني ذلك نقل واستنساخ المُفردات والمُكوّنات التّراثيّة، بقدر ما يعني استلهام الأبعاد الثّقافيّة لهذه المُفردات.

وقد وضُح لدينا من خلال دراسة رمزيّات "الحلقة" أنّ المجتمع الإباضيّ قد حافظ على مُقوّمات هذه الهويّة الإباضيّة، دون إعادة استنساخ نظامٍ لم يعُد اليوم قادرًا على التّواجد وسط المؤسّسات التّعليميّة والتثقيفيّة البديلة.

فمدينة جربة لا تزال تحمل هذه الأبعاد الثّقافيّة والعِلميّة الثاوية في نظام "الحلقة"، وهي زاخرة بنفائس التّراث الثّقافيّ، من مخطوطات ومكتبات وجوامع، حافظت على طابعها المِعماريّ البسيط مستلهمة رمزيّات الحلقة وما تستبطنه من دلالات لم تبُح بعدُ بكلّ أسرارها وخباياها الدّفينة .

5. قائمة المصادر والمراجع:

ابن منظور، بن مكرم. (1999م). *لسان العرب*. (ط 3). تحقيق أمين محمّد عبد الوهاب والعبيدي محمد الصادق. دار إحياء التراث العربي، ومؤسّسة التّاريخ العربي

أبو داود، سليمان بن الأشعث. (د.ت). *السُنن، موسوعة الكتب الستة وشرحها*. دار الدعوة

الألباني، محمد ناصر الدّين. (1995م). *سلسلة الأحاديث الصّحيحة*. مكتبة المعارف

البرّادي، أبو القاسم بن إبراهيم. (2014). *الجواهر المُنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطّبقات*. ترجمة وتحقيق أحمد السيابي. (ط) دار الحكمة

الجعبيري، فرحات. (2016). *نظام العزابة عند الاباضية الوهبية في جربة*. المطبعة العصرية

الدرجيني، أبو العباس أحمد. (د.ت). *طبقات المشايخ بالمغرب*. مطبعة البعث

الإصفهاني، الرّاغب. (1992). *مفردات ألفاظ القرآن*. (ط 1). تحقيق صفوان داؤدي، دار القلم

روبيناتشي، روبيرتو. (2006). *العزّابة: حلقة الشّيخ محمد بن بكر*، ترجمة لميس الشجني. مؤسّسة تاوالت الثّقافيّة

كوبرلي، بيير. (2010). *مدخل إلى دراسة الإباضيّة وعقيدتها: بحث مقارن في اللاّهوت الإباضي، في بلاد المغرب وعمان*. (ط 1). ترجمة الأستاذ عمّار الجلاصي. مكتبة الضّامري للنّشر والتّوزيع

مختار، عمر أحمد. (1997). *اللّغة والكون*. (ط 2). عالم الكتب للنّشر والتّوزيع

مجموعة من المؤلفين. (2000). *معجم أعلام الإباضيّة من القرن الأول للهجرة إلى العصر الحاضر*، (ط 2). دار الغرب الإسلامي

مجموعة من الباحثين. (2011). *معجم مُصطلحات الإباضيّة*. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية

المراجع الأجنبيّة:

Bourdieu, P. (1997). *Ce que parler veut dire, l'économie des échanges linguistiques*, éd. Fayard

Chebel, M. (2002). *Dictionnaire des symboles musulmans, Rites, mystique et civilisation*, Alain Michel.
Chevalier, J. et Alain G. (1982). *Dictionnaire des symboles*, Paris, Robert Laffont.
Frazer, J. (1981). *Le Rameau d'or*, Paris, Robert Laffont.
Fréderic, P. (1857). *Couleurs symboliques dans l'antiquité, le moyen âge et les temps modernes*, Paris, Wrutz librairie.
Goffman, E. (1974). *Les rites d'interaction*, traduit de l'Anglais par Alain Kihem, Minuit, collection « le sens commun », Paris.
Lewicki. (1991). *HALAKA*, in Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle edition, Paris.Edition G-P, Maisonneuve et Larose S.A, tomel, Tome III.
Pastoureau, M. (2000). *Bleu, histoire d'une couleur*. édition du Seuil.
Van Gennep A. (1909). *Les rites des passage*, Emile Nourry, Paris.